ملك الصحراء حياة ابن سعود

تأليف ديفد هوارث

كولنر ـ لندن (١٩٦٤)

مراجعة : د . علي سعود العطية*

يستهل المؤلف كتابه عن حياة عبد العزيز بن سعود، بأن يرسم ملامح شخصيته رسماً جيداً ، كما يرسم كاتب روائي باهر شخوص رواية فذة . والفن الروائي ـ كما نعلم ـ فن عريق في العالم العربي ولعله أثّر في رسم الشخصيات ، في كتب التراجم وسير الحياة ، تأثيراً كبيراً ، نلمس أثره في كتابنا هذا ، كما نلمسه في غيره من كتب ، نسوق مثلاً عليها ، «سير الحياة التي كتبها أميل لودينج» ، وستيفان زفايج ، وغيرهما .

يصوّر الكاتب ابن سعود ـ ابتداء ـ بأنه شاب رومانسي النزعة . الاّ أن هذه الرومانسية لا تمنعه أن يتصدى للأعباء الجسام . فيستهل حياته الغضة بعمل عظيم الا وهو استرداد عاصمة مملكة آبائه وأجداده ، الرياض ، وعمره لا يزيد عن العشرين . فهو يحدثنا عن خروج ابن سعود التاريخي من الكويت بصحبة قليلة العدد ، ولكنها بفضل قائدها عظيمة الهمة ، كبيرة الطموح .وطموحها هذا مستمد من شعور قائدها بأن له رسالة كبرى ، كما يحركه احساس ديني عميق وأصيل . فالمهمة في منطلقها ـ كما يذهب الكاتب ـ مهمة دينية ، في سبيل الله .

(*) جامعة النجاح الوطنية ـ نابلس .

يتجول المؤلف بعد ذلك مع ابن سعود في الصحراء ، ويعايشه في حياتها التي قال ابن سعود ـ فيما بعد ـ أن الايام التي عاشها متجولاً فيها، غازياً، مقاتلاً، ساهراً، نَصِباً ، كانت أجمل أيام حياته وأكثرها تفجراً بمعاني الحياة والدهشة والمغامرة . ويصف في صفحات موجزة كيف أن الحملة الأولى التي قادها ابن سعود من الكويت ، قد قامت بغزوات هنا ، ومناورات هناك ، حتى بلغت في غزوها حدود الربع الخالي في الجنوب ، كل ذلك ، قبل أن تعود ، كرّة أخرى، لكي تزحف بالليل على الرياض ، فتحتل قصر أميرها ، ابن عجلان ، ويقتل ابن سعود ، ابن عجلان ، بعمل دراماتيكي ، تميزه الشجاعة التي هي ضرب من المغامرة أو المراهنة على القدر !

وهنا يكون ابن سعود ، من البداية ، قد خطا خطوة كبرى ، وحقق ـ على الأرجح ـ العمل الأعظم والانجاز الأكبر في حياته . حقق الأمر الذي ظل كاتبوا سيرة حياته يرادحون به ـ أي العمل ـ بين الأسطورة والحقيقة . والأسطورة فيه نابعة من طبيعة دوره هو شخصياً ، كما أنها تنبع من أن ثلة صغيرة تغلب دولة وتستولي على عاصمة ومركز دولة . وطبيعة دور ابن سعود هي التي تستوقفنا هنا . ذلك لأنه أصبح حديثاً عن بطوله . تحدث بها الأمهات أبناءهن . . ويَسْخر حول الاستئناس بها الساهرون حول مدافئهم . . . والبطولة من صنع رجل واحد . . يملك خيالاً واسعاً . . كما يملك شجاعة خارقة . . وقوة جسدية كبيرة . ولعل ابن سعود ـ نفسه ـ قد أدرك عظمة تلك الخطوة ، والبداية الكاسحة ، والخطوة الأولى هي دائماً الخطوة الحاسمة ، فكان لا يحلو له الاّ أن يذكر هذه الحادثة العظيمة في حياته ويعيد في ذكرها . . . أمير لا زال في ريعان الشباب، يتحدى قوة ابن رشيد، التي عجزت أمامها قوة أبيه وحلفائه في أكثر من معركة ، وأنهى بابن رشيد الأمر الى تشريد أسرة حاكمة بكاملها لتعيش بعيداً عن وطنها وحكمها في كنف وضيافة أمير الكويت مبارك الصباح . ويتمكن هذا الأمير ، ابن سعود ، من ان يضربها بثلة بسيطة في عقر دارها ويتربع على سلطانها ولا يبالي بشيء ! وأكثر من ذلك أن يتمكن من أن يحافظ على موقعه الجديد بالرغم من كل التحديات .

ويريد المؤلف أن يقول لنا أن ابن سعود هو الذي أنقذ أسرته من الزوال ، والدخول في سجل النسيان ، ومفقودات التاريخ . . وتكملة عمل ابن سعود التاريخي هذا ، أنه أرسل بمناديه ينادي في شوارع الرياض أنه قد استولى على الرياض، وهو يطلب من الناس المبايعة والتأييد . فيتوافدون عليه . والعرب تحب لأميرها الحظ والمهارة ! . وكلاهما قد تحققا

من ، ولابن سعود حتى الآن !

بعد هذه المقدمة التي هي مدخل جيد لكتابه . . وفصل جليل من فصول حياة ابن سعود ، يشد اليه القارىء ويضعه في ثورة نابضة بالحياة والحيوية ، لمعطيات شاب يصنع تاريخاً ، ويبدأ قصة طويلة مثيرة . . بعد هذه المقدمة يتحول الكاتب في عملية اضاءة خلفية Flash Back لكي يحدثنا عن الحركة الوهابية التي يستمد منها ابن سعود كثيراً من حيويته الأيدلوجية والفكرية . ومن رصيدها الروحي يشعل وقود حماسه واندفاعه . فهي عقيدة التوحيد المطلق لله سبحانه ، ترفض الرفاهية وتنزع الى التقشف . كما يتحدث عن مؤسس هذه الدعوة الذي هو علّامة متجول: الشيخ محمد بن عبد الوهاب . داعية يدعو الناس . ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . . ينهاهم عن شرب الخمر والتدخين ولبس الحرير ، كما ينهاهم عن تقديس الأصرحة والأشخاص والأصنام . ويعقد هذا العلامة الشيخ الراية الاسلامية لآل سعود ، فيسيرون معه ، ويسير معهم : ليعيدوا ـ بفضل تجديد الدعوة الاسلامية ـ كتابة تاريخ شبه الجزيرة لفترة طويلة من الزمن . . . وتزداد الأسرة السعودية قوة ، كما أن دعوة ابن عبد الوهاب تزداد نفوراً وانتشاراً . .

بعد هذه الخلفية التاريخية التي تضع الحركة السعودية في منظورها التاريخي ، ينطلق المؤلف ليرسم لنا الخارطة السياسية لشبه الجزيرة من داخلها وخارجها . فيحدثنا عن امبرطورتين . . صاعدة وغاربه . . الأمبرطورية الأولى هي بريطانيا ، والتي يسيطر عليها هم استراتيجي واحد الا وهو حماية طريق الهند وثرواتها . . درة التاج البريطاني . والأمبرطورية الثانية هي الدولة العثمانية التي لها ـ على ضعفها ـ في شبه الجزيرة حلفاء وتابعون. وأهم الحلفاء هو ابن الرشيد حاكم شمّر وعاصمته حائل . . وعدو السعوديين التقليدي . . لا ينفك عن عداوتهم ، كما لا ينفك عن محالفة الاتراك . . كما أن الأتراك يسيطرون على الاحساء واليمن والحجاز . وعلى الأخيرة يعينون الشريف الحسين بن علي والياً . أما بقية المشيخات ، أو الامارات العربية في الخليج ، فقد كانت ترتبط مع بريطانيا ، بمعاهدات .

في هذا الاطار السياسي وضمن هذه الخريطة السياسية يتحرك ابن سعود ، صعوداً ، ليعيد ترتيب الأشياء . . وليساهم في رسم الصورة السياسية من جديد . . بحيث يفوز بالنصيب الأكبر فيها ، ويصنع دولة ودولة أجداده على التخوم التي كانت لها ، ويفوز من بين جميع القوى المتصارعة ، بنصيب الأسد ، كما يقال . .

من هنا يعود المؤلف ليحدثنا عن عبد العزيز بن سعود : الشخصية ، مرَّة أخرى . ولعله بهذا يريد أن يفحص أبعادها وينقب في جوانبها ، ليوضح لنا دور الفرد في صناعة الأحداث : دور البطل في التاريخ .

فيحدثنا أن ابن سعود، في حقيقته وجوهر سيكولوجيته، انما هو بدوي «روحاً وقلباً» . والبداوة والبدوي صورة يعجب بها الغربيون والمستشرقون بصورة خاصة ، ويجدون فيها صفات محببة : الشجاعة والمغامرة والكرم والذكاء الفطري وفوق كل ذلك البساطة . ولكن ابن سعود بدوي غير عادي في بداوته . يأخذ اجمل ما في البداوة ويستأثر بأحسن صفاتها . والى ذلك صاحب قوة بدنية متميزة . يصفه فيقول :

«لديه تميز وتفرد في قوته البدنية . ذلك التميز الذي له قيمة كبرى [في تكوين الشخصية] . فأكثر البدو هم من صغار البنية . ولكن ابن سعود كان طويلاً يبلغ ستة أقدام ويزيد عليها بثلاث بوصات . نحيف ولكنه صلب . ويستطيع أن يسبق في الجري وركوب الخيل أو اطلاق النار أي رجل آخر في الصحراء . لقد فاق بقامته العملاقة أقرانه . ولم يكن في مكنة أحد أن يتجاهله أو يتجاهل وجوده . ولم تكن وسامته هي كل رصيده . بل لقد كانت عيناه الغامقتان في لونهما قويتين . وانفه الذي يبرز بقوة ، مع شعره الأسود ، وذقنه الغير كث ، وشفتاه المليئتان بما توحيان به ، في تعارضهما مع العينين ، من نزعة حسيّة نحو الحب ، [كل هذه الملامح] جعلت منه رمزاً للرجولة العربية . ولقد كان يحس برجولته كاحدى خصائصه الأساسية . كما أنه كان يحسن استخدامها» .

ويضيف الكاتب الى ذلك قوله معلقاً على أعراض ابن سعود عن استعراض مناحي الجمال والسحر في شخصيته «ان السحر يأتي من عدم محاولة اشعار الآخرين به» ويستطرد قائلاً «ان معظم أعدائه كانوا من بين أولئك الذين لم يتح لهم قط مقابلته» . وهو بهذا يريد القول انهم لو قابلوه لجردهم سحر شخصيته الطبيعي من عداوتهم ، واستل من نفوسهم أحقادها ، فباتوا أصدقاء . وهو بهذا يؤكد . ما يذهب اليه العالم النفسي والاجتماعي ماكس ديبر في نظريته عن الكاريسما «الجاذبية الملهمة» ، والتي يصفها بأنها لا تعلل ، وأن تأثيرها نفاذ يُغري ويَجذب . وهي أقرب الى الموهبة الربانية لبعض الأشخاص من ذوي القدرات القيادية الفذة . التي بها يؤثرون تأثيراً خاصاً أخاذاً على الآخرين ، تأثيراً كأنه السحر !

وابن سعود ، الى ذلك ـ كما تصفه ريشة الكاتب ـ غضوب في بعض الأحايين ، وإذا

غضب فغضبه مخيف! كما أنه يفسّر حب ابن سعود للزواج من النساء، بأنه كان وهو الذي يفيض رجولة وفحولة ، كان بحاجة للمرأة كجزء من تكوينه الذي يضج بالحياة والحماس للعيش . وان الاكثار من الزواج كان تعميقاً لمعاني الرجولة في ذاته وامراً يساعده في السيطرة على أقرانه وحضور من الرجال ممن يظل يقارع ويصارع طوال حياته . والمؤلف بهذا ينظر نظرة كلية للوجود الانساني . ويتبع التكوين السيكولوجي للفرد ومحافظته على توازنه الداخلي والكياني من أجل أن يحقق أبعاد حياته . ويصل الى غاياته الوجودية والحكاية جميعها تبدأ بالذات الانسانية التي تضع ـ عبر المعاناة ـ مصيرها وقدرها . . بما يترسخ فيها من طاقات وامكانات .

وقبل أن ينتهي الكاتب من رسم أبعاد الشخصية ـ التي تستأثر بجزء غير قليل من الكتاب ـ وما فيها من مزايا وما يكتنفها من خصائص ونتوءات . فانه يعود ليسلط عليها الأضواء من زوايا مختلفة ، ومن مصادرها التي استمد منها مادته ومعطياته عنها . فهو يستشهد بآراء الشخصيات الانجليزية التي كتب لها أن تقابل ابن سعود في مراحل مختلفة من حياته . . والتي تكاد تجمع ، جميعها ، على عظمة هذه الشخصية عظمة ذاتية ، وعبقرية خاصة ، حتى أنها لو لم تتح لها الشهرة والانتشار لكفاها ما تتمتع به من مواهب وكنوز ! ولكن كل مسير لما خلق له . أو أن الأمر كما يقول القائل : لا بدّ لصاحب الخصوصية أن يظهر !

فبرسي كوكس المعتمد البريطاني في بو شهر ، والذي سيكون له دور كبير في تاريخ العراق الحديث ، كان ممن قابلوا ابن سعود ، وتأثروا به ، ووجد نفسه معه ، يتعامل مع أمير قائد جدير بالسماع والاحترام .

ورسول برسي كوكس الى ابن سعود ، الكولونيل شكسبير ، أُتيح له أن يعيش معه فترة من الوقت ، ويراه يمارس الحياة والحكم عن كثب ، وهو الذي كتب لبرسي كوكس عن ابن سعود يقول :

«إن ابن سعود يعطي الانطباع بأنه موهوب بطبيعة خاصة قوامها الاستقامة والصراحة والكرم» .

وهذه الصفات لا يقدّرها غير العرب فقط وانما قدرها العرب ، وبحثوا عن مناقبها في قادتهم ، وقدروهم على أساسها ، من مثل معاوية بن أبي سفيان وهارون الرشيد وصلاح

الدين الأيوبي وغيرهم . وكتب التراث مليئة بالأمثلة الجليلة عنهم .

غاية الأمر أن شكسبير ، ظل متحمساً لابن سعود ، معجباً به الى النهاية . وقد قتل في احدى زياراته لابن سعود ، بينما كان الأخير في معركة مع ابن رشيد .

وتتحدث المستشرقة ، وعالمة الآثار ، والسياسية البريطانية جرترود بيل ، والتي تعتبر من المراجع المعدودة والمعتمدة في شؤ ون الشرق الأوسط ، بين المراجع البريطانية ، تتحدث عن ابن سعود فتقول قولاً داعياً عميق النظرة :

«ان لدى ابن سعود مميزات العربي الطيب الأصل ، العريق الأرومة [تشهد ذلك] في الهيئة البارزة الملامح بقوة . والأنف الوشم ، والشفتين القويتين ، [كما تشهده] في الذقن الطويل الضيق ، الذي تكسوه لحية . . أما يداه فجميلتان ، وأصابعهما رقيقة . وهذه خصائص تكاد تكون عامة ، لدى أولئك الذين يتحدرون من أصل عربي بين القبائل» .

كما أن المؤلف يستهشد بآراء جون فيلبي . . الذي عاش الفترة الأعظم من حياته في كنف ابن سعود وساهم كما يذهب لوتسكي المؤرخ الروسي في صناعة الأسطورة في شخصية عبد العزيز . ومع هذا فكأن المؤلف يريد أن يقول لنا ، أن فيلبي لم يستطع أن يدرك أعماق هذه الشخصية ، أو أنه لم يعطها حقها ! فبالنسبة لمؤلف كتابنا ديفد هوارث ، لم يكن فيلبى يمتلك مميزات ت . ي . لورنس . «فهو لم يكن جندياً كما لم يكن شاعراً لقد كان لورنس دائماً شخصية بطولية . ولكن فيلبي لم يكن ذلك يوماً . مع أنه عاش فترة أطول في الجزيرة العربية ، وحِل أكثر» .

وعلى البعد السياسي ، والتعامل مع الخريطة السياسية للجزيرة العربية ، وانجازات عبد العزيز على طريق المملكة العربية السعودية يتابع المؤلف هذه الانجازات مرحلة فمرحلة وسط كثير من المصاعب وضروب الكفاح . . والتحديات الخارجية والداخلية .

فمن بعد احتلال الرياض ، ووضع اللبنة الأولى في صرح مملكته ، يحتل ابن سعود الأقرب اليها من ملك الأحداد ، عنيزة وبريدة . ولعل الذي يهمك ـ في هذا المجال ـ من كتاب المؤلف ، في حقيقة الأمر ، أنه يصور لك ابن سعود امرءاً لا يضع عصا القتال أبداً . بل إنه ينتقل من معركة الى معركة ، ويخرج من قتام الى قتام ! كما قال المتنبي . . ويضيف

المؤلف الى ذلك أن صمام الأمان في صبره وثباته . . ووقود صموده واستمراريته ودأبه هو زهده أو ما يفيد بـ «البيوريتانية» .

على أن ابن سعود يتصدى لقتال ابن رشيد وحليفه التركي . وهنا يتحدث الكاتب عن مأساة كتيبة تركية تعد بالمئات وتملك المدافع . . ولكنها تضيع في رمال الصحراء . . جهلاً وانعدام حماس وتخطيط . . .

وفي عام ١٩١١ يحتل عبد العزيز بن سعود الهعوب عاصمة الاحساء في ضربة خاطفة تذكرنا باحتلال الرياض . . بدهاء وشجاعة نادرين . يحتلها بعد أن يكون قد حيّر الانجليز ، أو أنه تفاهم معهم ، على أن عجوا ظهره في البحر ، من هجوم تركي متوقع . كما أفاد من صعوبة موقف تركيا الدولي في حروب البلقان وليبيا .

كما أن فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى ، تشهد صراعاً آخر ، له أبعاده العسكرية والسياسية الأكثر تعقيداً . ذلكم هو الصراع على الشريف حسين . وينتهي هذا الصراع لصالح ابن سعود ، بعد أن تكون بريطانيا قد استنفذت أغراضها من الشريف ، وأدارت له ظهر المجن ، وهو الذي ما انفك يتهمها بالغدر والنكران للجميل بعد أن تجسد له عمق المؤامرة الدولية التي حاكت خيوطها الحليفة البريطانية بالاتفاق مع فرنسا .

وفي عام ١٩٢٦ كان ابن سعود ، قد أصبح ملك الحجاز وسلطان نجد . .

وتبقى صفحة خاصة جديرة بالاعتبار في الكتاب . تلك الصفحة التي تحكي عن صراع ابن سعود مع الأصدقاء . . مع «الأخوان» الوهابيين .

وجوهر الأمر في هذا الصراع ، أن «الأخوان» وهم غلاة الوهابيين ، وأكثرهم حماسة للغزو والحرب ، تحولوا ، ـ كما يذهب الكاتب ـ الى أن طوروا زخماً من نوع خاص غايته الغزو للغزو ! أكثر من ذلك الغزو من أجل السلب والنهب . مستندين على مفهوم مؤداه أن كل من ليس معهم ، فهو عدوهم ، وعدو كافر . يستحق أن يصادر نفسه وماله . وفي هذا المجال يتحدث الكاتب عن شخصيتين كان لهما في هذا الشأن دور كبير . ذلكما هو فيصل الدويش زعيم قبيلة مطير ، وقاعدته في الأرطاوية على الحدود الشرقية ـ قريباً من الكويت ـ من السعودية . وابن حميد وقاعدته الى الشمال من الرياض ، في غات غات . وكلاهما شخصية تمتلك صفات القيادة ، والزعامة البدوية . وكل منهما أمير بطريقته . يقف المؤلف

عند ظاهرة اثبات حماس هذين الزعيمين واضرابهما الغزو فيصفها بأنها حمّى تمكنتهما الى حين . فيشبه دورهما بدور جنكيزخان ، الذي اشتعلت نار الغزو لديه ولدى قبائل التتار لفترة من الزمن . . الى أن انطفأت من تلقاء ذاتها ، بعد أن أكلت ذاتها واستنفدت مدّها وزخمها . .

وهو يعقب على ذلك قائلاً :

« كان هنالك عدد اكبر من غير المؤمنين ممن ينبغي ايقاع الهزيمة في صفوفهم . . . حتى إذا ما أحرق حماسها ذاته فانها تتوقف لأنها فقدت زخمها » .

غاية الأمر أن الدويش وابن حميد يُمعِنان في السلب والنهب . . متذرعين بذريعة عقائدية . وهي استمرار الثورة الدينية ، وضم مساحة اكبر من الأرض لها . ويسلطان قواتهما على صحراء جنوب العراق ، فيذيقان البدو في تلك الجهة ، ألوان العذاب ويقتلان منهم شرّ مقتلة . ويسببان الكثير من الذعر والارهاب . حتى لقد اصبحت صيحة « الدويش ! الدويش ! » تهيج الاطفال والنساء في الصحراء فيفرون وهم لا يلوون على شيء ! إلّا انهم كثيراً ، ما كانوا يسقطون صرعى القتل والسلب والنهب .

وهنا يتدخل الكاتب ـ متحيزاً ـ بشكل ظاهر ، فيضع الانقاذ على يد كابتن صغير ناشيء ممتليء « بتقاليد بريطانية البناءة الحضارية » ، وهو جون باجوت كلوب ، مسؤ ول البوليس في جنوب العراق ، والذي يضرب الدويش وابن حميد وجنودهما بالطائرات ويجلب عليهم بخيله ورجله ، حتى يسكت اندفاعتهم ويصدّ هجمتهم ، وعمي البدو « المساكين » منهم .

فيرتد «الأخوان» الى الاغارة على القبائل في داخل شبه الجزيرة بعد أن لم يجدوا متنفساً في خارجها ، لنزعتهم الى الفرد . ولسان حالهم :

واحيـانـاً على تـيس احنيـنـا إذا مـا لم نجد الاّ اخـانا . . .

يتصدى عبد العزيز بن سعود لهؤلاء الغزاة ، وقد تسببوا له في كثير من الازعاج في الخارج والداخل ، كما انه خشي ان يستغلهم الانجليز ، كمخلب قط للهجوم عليه . . . أكثر من ذلك لقد اتكأ الأخوان في خصامهم مع ابن سعود على امور ايديولوجية متصلة بصميم العقيدة وتطبيقاتها . فقد طلبوا اليه ان يتوقف عن استخدام ادوات الكفار التي أدخلها في حياته ودولته: السيارات والهواتف والراديو الخ . . كما انهم اتهموه بكبح جماح المدّ الاسلامي خارج الجزيرة ، وحيث ينبغي ان يكون . وانه أصبح ملكاً بدلاً من ان يكون أميراً

للمؤمنين . وكأنهم بهذا يريدون للثورة الاسلامية ان تستمر الى مالانهاية . وحتى يقضي الله امراً كان مفعولاً . وهذا أمر معهود لدى كل راديكاليي الثورات الايدلوجية الكبرى في التاريخ . او انه الصراع الحقير بين منطق الدولة ومنطق الثورة .

الّا ان الكاتب لا يغمط الدويش حقّه . فيذكر صفات جليله لابنه ـ ابن فيصل ـ ويلقب بعُزَيز . تصغير عبد العزيز ـ والذي هو صورة من النبل ، تختلف كل الاختلاف عن صورة والده . يقول عن الدويش الابن :
« فمن يذكرونه ، يذكرون انه جذّاب . أمير صحراء . لأن الرجال كانوا ينقادون له باخلاص وحتى الموت ! » .

ومهما يكن من أمر فانه كان لا بدّ للصراع الداخلي ان يُحسم ، ولم يكن إلا السيف حاسماً . فابن سعود في شؤون شبه الجزيرة لم يكن ـ رغم تسامحه العظيم مع الافراد ـ ليؤمن الّا بالحسم والوصول بالأمور الى غاياتها . فقد جرّ الحليفين الدويش وابن حميد الى معركة فاصلة ، هي سبلا ، وجلب لها عدة وعتاداً كبيرين وزودها ـ وهذه كانت بدعة جديدة ـ برتل كبير من السيارات المعبأة بالجنود المسلحين من الضارة ، واخترق بها الجزيرة من الغرب ، نحو أقصى الشرق ، حيث كان اعداؤه في انتظاره ، وقد جمعوا صفوفهم . وهنا يشبه الكاتب حملة ابن سعود هذه بحملة هانيبال ، ووجه الشبه ان سيارات ابن سعود أو أحصنته الحديدية ، هي كالأفيال التي قادها هانيبال عبر الالب ، فولّدت الخوف وقذفت الرعب في قلوب الرومان . اجل لقد ولدت سيارات ابن سعود ـ في ذلك الوقت ـ بهديرها وقعقعتها وقضها وقضيضها ما كان يريده منها ، وارهبت خصومُه ، وارهقتهم من امرهم عسراً . فلم يلبث ان تغلب عليهم . وسلّم ابن حميد نفسه . وبعد هذه المعركة ، لم يقم هؤلاء الخصوم الا ببعض المناوشات ، وانتهى امرهم تقريباً ، او أنهم لم يعودوا يشكلون خطراً .

ويختم الكاتب كتابه باقبال الدنيا ـ التي لم تقض على اصالته ولم تغير كثيراً من سمات شخصيته كأمير بدوي ـ على ابن سعود . فقد اكتشف النفط . وسعدت المملكة بثروات انصبّت عليها انصباباً ، فحلت كثيراً من المشاكل المادية ، التي طالما عانى منها ابن سعود . وأسهمت في توطيد اركان دولة هي بين ابرز وأقوى الدول العربية في الوقت الراهن . .

* * *

وبعد فان هذا الكتاب ، الذي كتب بروح تعاطف ومحبة صادقتين نحو ابن سعود ، لا يخلو من بعض المآخذ : ذلك انه بمقدار حماسه لابن سعود فانه بالمقابل يطغى احياناً في الحكم على العقيدة التي يعتنقها ابن سعود . بل انه لينفذ اليها من خلاله تحليله المبغض لشخصية ابن حميد ، احد زعماء الأخوان ، فيتهمه ـ ويتهمها ـ بأنه يؤمن بعقيدة طائفية بالية ، مضى عليها اكثر من الف عام .

ولعله في هذا وقع في شيء من التناقض ، إذ ان احدى معالم التفوق في شخصية ابن سعود ، هي زهده وايمانه العميق بعقيدته ، ذلك الايمان الذي كان اكسير نجاحه ، والمعين الذي يمدّه بطاقة روحية لا تنضب . طاقة يسلطها على الشدائد فتنفرج ! اكثر من ذلك فان المتعمق في دراسة الكتاب يجد ان طاقة ابن سعود الروحية هي التي جعلت منه بطل الصحراء العربية ، والقائد العسكري والمحارب الاول في شبه الجزيرة العربية .

ولعلنا نستطيع ايضاً ان نأخذ على الكتاب ناحية منهجية . فهو لا يخلو من محاولة ابراز دور عبد العزيز بن سعود من منظور انجليزي : الشواهد انجليزية ، والمصادر انجليزية والشخصيات البارزة في الدراسة انجليزية . حتى اننا لنستطيع القول ان كل فصل من فصول الكتاب وكل موقف بطولي من ابن سعود له ما يوازيه من شخصية انجليزية مطابقة او موازية . . او ذات علاقة ـ بصورة ما ـ بابن سعود : فهو يقف وقفات طويلة عند برسي كوكس رمز الموظف الانجليزي الذي لا يعتريه الفساد ، كما انه يشيد بروح شكسبير البطولية ، ووقفاته المغامرة . ويحاول ان يضعه في مصاف لورنس الذي أخذ الباوآ بطولية ورومانسية في الأدب الانجليزي الحديث ـ السياسي وغيره ـ تتجدد كل يوم ، في فصول متتابعة ، وقد بلغ الاعجاب بهذه الشخصية الى الحدّ الذي حدا بتشرشل الاستعماري العتيد ، والشخصية العملاقة ـ وكما تذكر بعض المصادر ـ ان يتطلع اليه (للورنس) بنظرة ممزوجة بعبادة الابطال .

كما ان فيلبي ، يلقى شيئاً من التعاطف من الكاتب لا يبلغ على أي حال تقديره لضابط ناشىء هو جون باجوت جلوب ، الذي هو منفذ أمين لمبادىء الأمبرطوريـة العظمى في الرحمة والشفقة والتضحية . . من أجل الضعفاء والمساكين والمشردين !

أما ديكسون فيقوم باستئناس البدو ، والعيش بسلام بينهم فيحقق لهم بانسانية ،

ووداعة ما حققه جلوب بالمدفع والرصاص . اما جرترود بل فهي - في نظره - الباحثة عن الحقيقة ، المسجلة باخلاص لها . . .

كل هؤلاء يدخلون القصة السعودية (قصة عبد العزيز) من أوسع ابواب الحصافة والنزاهة والبحث عن الحقيقة والدفاع عن الحق . . ولكن الدارس المنصف ليدرك تماماً - كما كان يدرك ابن سعود - ان هؤلاء قاموا بادوار مرسومة ، سرية وعلنية ، من أجل عزف نشيد متكامل في سيمفونية الاستعمار البريطاني ، وان نواياهم لم تكن دائماً خالصة نحو طرف من الأطراف - عبد فهيم ابن سعود - الا بمقدار ما يخدم ذلك المصالح البريطانية ، بالدرجة الاولى .

لقد كانت المنهجية والاخلاص الكامل للحقيقة التاريخية ، تتطلبان من المؤلف ، ان يوسع في قاعدة مصادره ، وان تشمل هذه المصادر ، مصادر أخرى من غير الانجليزية . . وان لا يحاول الكاتب تغليب المنظور الانجليزي ، على غيره . وان لا يضع الانجليز دائماً - تقريباً - في خلفية الصورة في الموضوع الذي يعالجه . .

كما اننا يمكننا ان نأخذ على الكاتب انه ينفرد بتوجه خاص وباستنتاج معين بين كثير من المؤرخين الانجليز ذلك انه يناقض كثيراً من التراث الانجليزي ، حول الثورة العربية الكبرى - ثورة الشريف حسين . واستنتاجه - في مجمله - مؤداه ان « اخراج » الثورة العربية - من قبل الانجليز - كان امراً خاطئاً او مؤسفاً . فعند حديثه عن شكسبير رسول بيرسي كوكس الى ابن سعود والذي - كما اسلفنا - قتل في احد المعارك - مع ابن رشيد يقول انه لو كتب لشكسبير الحياة ، لربما تغير وجه التاريخ . ولكانت الثورة التي قادها الشريف حسين ضد الاتراك وُسِدَّت لابن سعود . وقام بأعبائها الوهابيون الشجعان . يذكر : « لم تُقَدّم القيادة لابن سعود ولكنها قدّمت لشريف مكة ، في حملة لورنس العبقرية في الغرب . وقبل وفاة شكسبير ، كان ، قد أبدى مقدرة نادرة ، يشترك فيها مع لورنس ، في كسب ولاء البدو . وانه لا يوجد مدعاة للشك في انه لو قدر له العيش ، فانه كان سينظم الدعم البريطاني لابن سعود . ويقود ابن سعود والاخوان والبدو ، الذين كانوا رجالاً يتقنون صناعة الحرب ، اكثر من رجال الشريف . يقودهم - أي شكسبير - اما الى بغداد ، واما الى الغرب ، باتجاه خط حديد الحجاز ، وعلى هذا فان حملة لورنس ربما لم تكن ممكنة ، او ضرورية . وان اثره العظيم (اعمدة الحكمة السبعة) ربما لم يكن ليكتب » .

ونحن الذين لا نقلل من شأن ابن سعود ، ومقدرته القيادة الكبيرة الذي قد تصل الى درجة الاسطورة ـ تشهد بذلك صفحات الكتاب الذي بين أيدينا وغيرها ـ لا نستطيع ان نوافق الكاتب على ما يذهب اليه . بل ان ما يذهب اليه ليدعونا ان لا نتورع من اتهامه بالمبالغة والتي من السهل الرّد عليها بما يأتي :

أولاً : لم يعرف عن ابن سعود الطموح للدخول في مغامرات ، او صفقات سياسية غير مدروسة ، او غير معروفة الابعاد بل كانت استراتيجية من البداية الى النهاية : التركيز على الجزيرة والجزيرة فقط . فلم يكن لديه طموحات لحكم العالم العربي . كما انه لم يطمح ـ كما هو معروف من المصادر التاريخية المعتمدة ـ للخلافة الاسلامية بكل إشكالاتها الشائكة .

وقد شاهدنا انه هو الذي كبح النزعة المغالية ، في مدّ حدود الدولة السعودية ، الى خارج الجزيرة .

اجل لقد كان ابن سعود سياسياً بعيد النظر ، واقعياً براجماتياً ، ليس على استعداد ان يأخذ اكثر مما يستطيع استيعابه . كما شعر ان مجاله الحيوي ـ وهو البدوي الملتصق بالصحراء بقوة ـ هو الجزيرة العربية . ووراءه في ذلك تجربة تاريخية عميقة ، تردعه ، فقد تكاتفت العوامل الدولية على زعزعة سلطان السعوديين عن أرضهم، عندما تحولوا الى فاتحين متوسعين في اوائل القرن التاسع عشر . وعلى هذا فهو في غنى عن ان يدخل في صراعات دولية غير مأمونة الجانب . اكثر من هذا فان الكاتب ، واسم كتابه ، وكافة مناقشاته التي تؤ يد اطروحته في هذا الكتاب ، تجعل المسرح الأساسي لنشاط ابن سعود ، المحارب الكبير ، هو الجزيرة العربية وليس ما وراء هذه الجزيرة .

ثانياً : أن الكاتب يتجاوز الحقيقة عندما يعتبر الثورة العربية ـ في جوهرها ـ خطة أو احبولة بريطانية مدبرة ، وأن العرب ، ليسوا سوى أدوات طيعة ، في يد بريطانيا ، أو أن الدور العربي كان اضافياً . وآية هذا الرأي ، وغايته، هو تحجيم وتقزيم هذه الثورة ، ومحاولة هادفة لحرمانها هذه الثورة ، وسلبها الكثير من أصالتها ، التي تكونت وتبلورت قبل وقت كبير من اندلاعها ، تلك الاصالة التي ساهم في تعميقها مفكروا الثورة ومنظروها ، كما ساهمت في صناعتها ـ تاريخياً الجمعيات والأحزاب العربي قبل اشتعال نار الثورة بعقود طويلة .

حقاً إن بعض اللوم قد يقع على الشريف حسين لأنـه لـم يحسن قيادة هـذه الثورة.

كما يذهب الكاتب، ولكن ليس للأسباب التي أبداها. فنحن نرى أن من يريد الالقاء باللائمة على الشريف حسين قد يجد سبباً لذلك في أنه آمن واطمأن للانجليز وأعطاهم من الثقة أكثر مما ينبغي. ولم يحسب حسابات المستقبل معهم بدقة. وليس لأي أسباب أخرى قد تتعلق بأسلوب القيادة وتوجيه دفة القتال أو نوعية المقاتلين . ومصداق هذا الرأي ودليله يكمن في أن الشريف حسين تمادى في ثقته في الانجليز ، ولم يتحول عنهم في اللحظة الحاسمة عندما تكشفت لديه بنود معاهدة مايكس بيكو (١٩١٧) التي تناقضت تناقضاً صريحاً مع وعودهم له في مراسلاته المشهورة . وقد تجلى سوء النية من قبلهم نحوه ، عندما وضح أن جزاءه أنهم نقموا عليه عندما استنكر سياستهم المقيتة نحو العرب بعد الحرب : فقد رفض قرارات مؤتمر فرساي ، ومؤتمر سان ريمو ، كما رفض حضور مؤتمر لوزان الذي كرّس التقسيمات الاستعمارية للوطن العربي ، كما أنه لم يوافق على وعد بلفور . وكان من جراء هذه النقمة أن اشهرت ضده الأقلام الاستعمارية لدوره في الثورة - صورة بائسة كئيبة . ولعل هذه الصورة قد انعكست فيما بعد - على دوره التاريخي في الثورة ، مما جعل هوارث يجيء ليقول هنا أن ابن سعود كان ينبغي أن يقوم بالثورة ! أكثر من هذا ان الأقلام الصهيونية - بصورة خاصة - تحرص أيضاً على حرمان العرب - بقيادة الشريف حسين وابنه فيصل - من أي دور تاريخي مذكور ، وانجاز عسكري هام الى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الأولى نفسها . وهم بذلك يحرمون العرب وبخاصة الفلسطينيين منهم ، من حق تاريخي ذي شقين :

الشق الأول : أن مراسلات الشريف حسين مكماهون التي مهدت للثورة ، وكانت بمثابة معاهدة سياسية ، هذه المراسلات تنص على أن تكون فلسطين جزءاً لا يتجزأ من الدول العربية المستقلة الواحدة. وهذه المراسلات من الناحية القانونية أقوى أثراً، كما أنها أسبق زمنياً ، من وعد بلفور . وهذه قصة ، التوسع فيها ، غير وارد هنا . وغاية الأمر أن العرب لم يحصلوا على هذا الحق القانوني الا كمقابل موضوعي لدورهم في الثورة . . فهو ليس منحة كوعد بلفور . وإذا جرّد هذا الحق من مقابله الموضوعي فلا قيمة حقيقية له .

والشق الثاني: هو أن الجهد العسكري العربي كان جهداً كبيراً وفعالاً ، حمى ميمنة اللنبى أثناء تقدم المحوط بالمصاعب في فلسطين ، كما أن سدّ في وجه القوات الألمانية والتركية البحر الأحمر . وغني عن القول أن هذا الجهد هو الذي جنّب الانجليز هزيمة متوقعة ، لا سيما وأنهم هزموا في أكثر من موقع من قبل الأتراك ، وكانت المعركة في أحدى

مراحلها الحاسمة ، معركة كرّ وفرّ ، كما أن الأتراك هزموا الانجليز هزيمة ساحقة في الكوت في العراق ، وأسروا منهم الألوف المؤلفة . أقول أن الجهد العسكري العربي الكبير من خلال الثورة على الأتراك ، وملاحقتهم في صحراء الحجاز والأردن في ملاحم معروفة ، لم يكافأ عليه العرب ، الا بالجحود والنكران وتمزيق الأوطان .

على هذا فانني لا أخال الكاتب رغم جهده الواضح في الحديث عن ابن سعود بروح منصفة أحياناً كثيرة ، الاّ أراد أن يمحو بجرة قلم دور الثورة العربية ، حتى لا يترتب عليها أي حقوق سياسية أو قانونية للعرب على بنى قومه الانجليز . وذلك من خلال محاولة اقتراض دور آخر لعبد العزيز لم يكن يفكر أو يقبل به .

ولعلّ المفارقة في الصورة التي يرسمها الكاتب تبدو واضحة جلية عندما نتذكر أن الجهد العسكري الصهيوني والذي هو قليل إذا قورن بالجهد العسكري العربي ، مع الحلفاء ، أخذ ـ في كتابات الغربيين والصهاينة ـ أكثر مما يستحق بكثير وصنع له شهداء مثل ترميلدور ، كما خلق له أبطال مثل جابوتنسكي وابن غوريون واسحق بن تسفى وغيرهم من قادة الفصيل الصهيوني في جيش الحلفاء . . وبالمقابل فان الجهد العربي الفلسطيني ـ مثله مثل الجهد العربي بعامة ـ والذي تمثل بحشد عشرة آلاف مقاتل بقيادة محمد أمين الحسيني ، التحقوا بجيش فيصل وقاتلوا معه حتى دخلوا دمشق . . هذا الجهد الفلسطيني لا يشار اليه الا عابراً ، اذ أنه يتناسى مطلقاً . وستبقى من الأخطاء التي لا تغتفر في نظر المقولة التاريخية الصهيونية ما سجله لورنس من دخول القوات العربية دمشق محررة لها ، قبل القوات الانجليزية . وتتمادى هذه المقولة في الزعم أن الثورة العربية ليس لها من الثورة الا اسمها ، والاّ كتاب «اعمدة الحكمة السبعة» الذي هو خيال كاتب أو شاعر رومانسي . . . وكما يصفه هوارث أيضاً . . مجمل القول أن هذا الكتاب شأن كتابات كثير من المؤرخين والكتاب السياسيين الغربيين ، يحتاج منا ألاّ نأخذه على علاته ، وألا نعتبر ما جاء فيه مسلّمات لا يأتيها الباطل من بين يديها ، ولا خلفها . بل نرصد تحامله وأوجه المبالغة فيه بعين فاقدة بصيرة .

بقي أخيراً أن نقول أن هذا المرجع يظل أساسياً ، وضرورياً في دراسة صفحة من تاريخ الجزيرة العربية ، ووسيلة طيبة للعيش فترة جميلة في ظلال ونفحات شخصية عظيمة ، هي شخصية عبد العزيز بن سعود ، بانجازاته ، ذات الأبعاد التاريخية الكبيرة والتي قد يستمر أثرها الى مدى طويل .
